الجَحيمُ... همُ الآخرون

قال الفيلسوف الوجودي الشهير جان بول سارتر .. (الجحيم.. هم الآخرون) ورغم اختلافنا المتميز مع فلسفة سارتر الا أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية... فقد شغلت هذه المقولة عقول المثقفين في الستينات وأثارت معاركا جدلية ما زال غبارها يغطي مساحة كبيرة في المجال الفكري المليء بدخان المعركة التي وصفها أبو تمام في بيت الشعر:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه

ولعل من باب القول المعاد أن نكرر موقف سارتر فيما قال ولكننا ينبغي أن نصغي لأصداء قوله بآذان متجردة من الخلفية المسبقة وبزاوية مختلفة في مجال القول والفعل.. أما القول فليس أصدق من حكمة زهير بن أبي سلمة حيث قال: (فان الحرب أولها كلام) مع الإعتراف بدبلوماسية عبارة (ما كل ما يعرف يقال) وفي مجال الفعل يندر أن يتطوع الإنسان بإدانة فعله مهما اختلفت قناعة الآخرين ومهما اتفقت في أن الخطأ من طبيعة البشر ولو كان الصواب من نصيب كل فرد حي، لكانت الحياة نمطا غريبا من السلوك. فالحياة ليست خطا مستقيما يربط بين نقطتين هما الموت والحياة والا أصبحت فيلما وثائقيا مفرطا في التكرار والرتابة لأن الإنحناءات والمنعطفات تضيف الى حركة الحياة زخما جديدا من قوة الإندفاع وتنويعا رائعا من التجارب في الفكر والعمل.

والفكر والعمل صنوان فمن يعمل بلا فكر و من يفكر بلا عمل يتساويان في حصيلة العطاء. فالفكر المترف بالاستنباطات والتأمل جهد سلبي يفقد لذة العطاء والعمل المجرد من الفكر هبوط من قمة الإنسانية الى حضيض الحيوانية لأن العقل هو مستودع الأفكار واذا عمل الانسان بلا فكر فقد حرم عقله من ممارسة حقه المشروع في حياة البشر.

يقولون من لا يعمل لا يوخطئ وبقدر حجم العمل يكون مقدارا الخطأ ودرجة المسألة وأخطاء الكبار كبيرة كما قال أبو الطيب المتنبي في سياق التعبير عن أقدارهم:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكما قال الحكيم الصيني كونفوشيوس (إذا أردت أن تعرف رجلا فاعطه عملا) لأن العمل مقرون بالخطأ ولأن البشر غير معصومين والخوف من الخطأ ينبغي ألا يكون عقبة في سبيل العمل فقد قال تعالى: (قل إِعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) كما قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) اذن فالخير والشر مرتبطان بشرف العمل.

وقد يتساءل الانسان: كيف يعمل أو يتعامل؟ ان متطلبات التعامل متعددة ومتداخلة ومتكاملة.. في سلسلة من حلقات الإتصال.. متعددة من حيث طبائع البشر.. ونوعيات سلوكهم ومتداخله بحيث ما يرضي الانسان ذاته قد يغضب من

يتعامل معه واذا رضي الطرفان فقد يغضب طرفا ثالثا في دائرة المعاملة.. ومتكاملة من حيث أن العمل الواحد له جوانب سلبية وايجابية تكمل هذه الدائرة الكهربائية التي تولد الطاقة التي يتحرك بها دينامو الحياة فيدور بنا في بورصة المعاملة.

ان التعامل مع الآخرين يقتضي قدرا من التنازلات.. بعض الناس يقنع منك بالنوايا الحسنة والرغبة في السير آلية فيتحرك نحوك خطوات أكثر والبعض على استعداد للقاء في منتصف الطريق.. والبعض لابد أن تصل إلى داخل دائرته يفكر في الحركة نحوك ثم ماذا بعد؟ تأتي مرحلة التعامل.. فالبعض يرغب في تقديمك تنازلات قد تلغي انسانيتك وتهدد حقوقك وتنفق معه بأسلوبه وتختلف معه بطريقته حتى يبني جسور مودة من نسيج أعصابك و مادة نخاعك ويمثل هذا الحد الأدنى من المقبول لديه في بورصة المعاملة وفي أفضل الحالات يمكنك الاحتفاظ بحقك في الاختلاف والاتفاق بعد التنازلات السابقة لدى الضرورة وقد يتطلب الأمر تجاوز الضرورة ذاتها شكلا ومضمونا حتى نصل الى أرضية مشتركة في التعامل وقد تكون المشكلة هي من صنعه ووليدة موقفه ولكنن قطار الحياة لابد أن يسير ولن يوقف حركته سقوط فرد أو تقاعس جماعة ولعل الشاعر القائل (سافر فللأسفار خمس فوائد) كانت في ذهنه صورة رحلة الحياة في قطار مجهول الهوية لابد لكل منا أن يسافر عليه ومن يكمل الرحلة قد يستمتع بأكثر من خمس فوائد ومن يرفض السفر فقد لا تتكرر له الفرصة، والتعامل مع الآخرين رحلة في مركبة ومن آداب السفر حسن

اختيار الرفيق قبل الطريق واذا استحال بتبديل رفيق الرحلة فمن المستطاع بتغيير سير الاتجاه حتى نصل إلى ذات الغاية محمولين على جناحين من صبر أيوب: طول الزمن، وفداحة الثمن.

ويقولون ماذا تكسب عندما تخسر نفسك وتكسب الآخرين.. وهذا افتراض بأن ملكية الخيار في يد الفرد عند اتخاذ القرار والواقع يؤكد أننا في كثير من الحالات يكون رضاء الآخرين مفروضا علينا من موقع الإلزام والالتزام مع العلم المسبق بأن (ارضاء الناس غاية لا تدرك) وان الخسارة الفردية ضريبة تعامل في بورصة الحياة، من أجل السعادة وقد لا تكون السعادة مكسبا ذاتيا بقدر ما هي بطاقة دخول الى حياة الآخرين في اطار البروتوكول المقبول لديهم وحتى اذا افترضنا من أجل تبسيط الحياة وخلوها من المنغصات أن قمة العافية في الرضا عن النفس فمن لا يرضى عن نفسه يصعب عليه ارضاء الآخرين وفاقد الشئ لا يعطيه. اننا في كثير من الأوقات مضطرون لقلب أطراف المعادلة للوصول الى الإجابة الصحيحة. بما أن أبجديات علم الرياضيات التي نتعلمها في المدارس كوسيلة لتعليم الفكر قدر الاستفادة من المعلومات في حل مشكلات مستقبلية.

في الحياة لا كفاية في حشو الرأس بالمنهاج المدرسي السنوي فقط.. هذه الفرضية تؤكد أن لكل مسألة حلا يبدأ بمقدمة موضوعية وخطوات علمية تقود الى نتيجة منطقية بحيث يكون مجموع المعطيات مرتبطا بمحط النتيجة الا أن هذه الفرضية في الوجه المقابل قد تكون أوسع الأبواب للدخول في جحيم الآخرين.. لأن من فخاخ التعامل الإنساني وسيلة (الاسقاط) حيث يصبح

الجحيم هو محاولة اسقاط أخطائنا على الآخرين باعتبارهم مخطئون ونحن على صواب والاسقاط في حد ذاته أحد حيل النفس الداعية وصمام الأمان في ايجاد توازن نفسي وتوافق ذاتي عند الانسان وفوق معدلات معينة يصبح ظاهرة مرضية تجعل الانسان نفسه جحيما للآخرين من فرط احساسه اللامنطقي بوهم عذاب الآخرين.

إن الانسان لا يمكن أن يعيش في فراغ، ومن قوانين الطبيعة ملء حدوث الفراغ فالآخرون هم الذين يملأون هذا الفراغ في حياتنا ويحددون اطار الصورة التي نعيش بداخلها ويعطوننا الحجم والشكل ويحددون لنا الزمان والمكان.. ويرسمون لنا الحاضر والمستقبل.. ويصبح الفارق الوحيد بين شخص وآخر في قدرته على التدخل في الوقت المعقول وبالقدر المناسب والأسلوب الأمثل للمشاركة في تحديد هذه الأبعاد حتى لا يجد نفسه يدور داخل اطار ليس من صنع ذاته وداخل قالب لا يناسب مواصفاته وفي زمان ومكان لا يحققان طموحاته.. وفي حاضر يملك تغييره أو مستقبل لا يعرف مصيره.

فهل كان سارتر على حق حينما قال: الجحيم هم الآخرون؟ مجرد تساؤل يستحق التفكير ولا يشترط الإجابة...